الباب الأول

علم الاجتماع الكلاسيكى ومشكلة النظام

الفصل الأول : مفهوم النظام العام ومشكلته

الفصل الثانى : علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر .
بداية التجسيد الايديولوجى لمشكلة النظام

الفصل الثالث : تالكوت بارسونز والحل المعيارى لمشكلة النظام

الفصل الرابع : التجسيد الامبيريقى لمشكلة النظام

الفصل الخامس : محاولات الخروج من دائرة النظام : النظريات التوفيقية .

الفصل الأول

مفهوم النظام الاجتماعى العام ومشكلته

مقـــدمة :

لما كان هذا البحث يتخذ من مشكلة النظام العام Problem of Social order نقطـــة انطلاق رئيســـية ، فقـــد كـــان من الطبيعى أن يســـتوقفنا منـــذ البداية هـــذا الســـؤال : لماذا مشـــكلة النظـــام العـــام بالذات ؟ والاجابة عن هذا السؤال تقودنا بالطبع الى تقصى معنى هذا المفهوم ، وكيف ارتبطت به هذه المشكلة (مشكلة النظـــام) ، على يد الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز ، وكيف يرى علماء الاجتماع أن نظريـــات علم الاجتماع المعاصر تتبلور حول هذه المشكلة . من هنا فان هذا الفصل سوف ينقسم الى الموضوعات التالية :

أولا : مفهوم النظام الاجتماعى العام

ثانيا : توماس هوبز وصياغة المشكلة

ثالثا : نظرية علم الاجتماع ومشكلة النظام

رابعا : مشكلة صراع أو مشكلة نظام :

اولا : مفهوم النظام الاجتماعى العام :

يعتبر مفهوم النظام العام الاجتماعى مفهوما فضفاضا له معانى كثيرة . وربما كان القاموس هو المصدر الذى نستطيع أن نبدأ منه ليكون لحديثنا اساس أكثر صلابة . يشير مفهوم النظام العام الى الترتيب المنظم ، كما يشير الى التتابع المستمر المنظم ، أو العلاقات المتناغمة ، وهو يشير أيضا

الى اى نسق من الاشياء المادية : مثل الكتب المصطفة فى المكتبة ، أو نسق من الآراء والأفكار : مثل ترتيب رؤوس الموضوعات لمحاضرة معينة ، أو فترات من الوقت : كشهور السنة ، وهو يشير أيضا الى أى ترتيب على الوجه الصحيح : مثل ترتيب الأثاث فى المنزل ، أو أى اجراء عرفى : كما هو الحال فى تنظيم المناظرات أو المعاملات التجارية ، وهو يشير أيضا الى التوافق مع القانون أو حالة استتباب الأمن : أى المحافظة على الهدوء العام فى الجماعة المحلية ، كما انه يشير الى مجموعة من الأشياء أو الأشخاص نظمت فى اماكن معينة : مثل الضباط . ومع هذا الغنى فى المعنى فلا ندهش اذا وجدنا بوب Pope يعتبر أن النظام هو « قانون السماء الأول » (١) .

وليس من السهل أن نطبق هذا القانون السماوى الأول على المجتمع البشرى . فلا يعقل أن يكون الأفراد فى المجتمع مثل مجموعات الكتب المنتظمة فى المكتبة ، أو قطع الأثاث المرتبة فى المنزل او مثل شهور السنة . هنا يكمن الفرق بين تحقيق النظام بين الأشياء المادية وتحقيق النظام الاجتماعى بين بنى البشر . انه الفرق بين الجماد واللاجماد ، بين الطبيعة والانسان ، بين الحياة والموت . ولتتضح أمامنا صورة النظام العام الاجتماعى لابد أن نبحث عن العناصر التى تكون هذا النظام والتى يشتقها العلماء من كل المعانى السابقة ومعانى أخرى كثيرة .

يحصر فردريك لمى F. Lumley عناصر النظام الاجتماعى العام فى ثلاثة عناصر رئيسية هى : (٢)

١ ــ الترتيب Arrangement وجوهر الترتيب هو الصف أو الخطوط المستقيمة واذا كنا نستطيع أن نربط الخطوط المستقيمة مع بعضها لتكون مثلثات أو مربعات أو دوائر فتكون منها توليفات لانهائية ، فان الحياة الاجتماعية تكشف عن قدر من الترتيب وان كان لا يأخذ دائما

---

(١) Frederick E. Lumley, Principals of Sociology, 2nd Edition, McCcraw-Hill Book Company, Inc., N.Y. and London 1935, p. 424.

(٢) Ibid., pp. 424—426.

شكل الخطوط المستقيمة . ويظهر الترتيب فى الحياة الاجتماعية فى دور العبادة والمسارح وفى فصول الدراسة وقاعات المحاكم وحول موائد الطعام . ويظهر فى مباريات كرة القدم ، وأمام شبابيك التذاكر وفى الحفلات والجنائز ، وفى تغيير نوبات العمل ، وفى النوم والأكل وباختصار فان الحياة الاجتماعية تكشف عن ترتيب فى المكان والزمان والحركة .

٢ ــ العلاقة : Relationship يعتبر النظام الاجتماعى العام شيئا اكثر من ترتيب حركة الزمان والمكان لجماعات اجتماعية منفصلة . فهناك عنصر جوهرى لابد من تحقيقه ليتحقق النظام الاجتماعى العام واعنى العلاقة بين هذه الوحدات والجماعات . فهذه الوحدات والجماعات تتداخل وترتبط ، ويؤثر كل منها على الآخر ، بحيث لا يمكن تفسير احدها بمعزل عن الآخر . انها نسيج أحكم صنعه يضفى على الحياة الاجتماعية قدرا كبيرا من الوحدة والترابط . ونحن نستطيع ان نلمس هذا الترابط فى حياتنا اليومية ، فما نفعله أو نفشل فى فعله له تأثير على حياة الآخرين ، وينعكس هذا الترابط فى خفقات القلوب التى تنبعث من هنا وهناك عندما يرتكب احد افراد الأسرة جريمة أو عندما يشب حريق فى المنزل ، أو ينادى منادى القتال ، أو تظهر بوادر الانتصار ، أو ترفع الأجور . وان صفا طويلا من الجنود قد يصل الى مئات الأميال لا يصنع جيشا دون هذا الترابط ، فما لم توجد علاقات مرتبة لا يوجد نظام .

٣ ــ الثبات (الاستقرار) Stability عندما تستمر العلاقات المنظمة بين الوحدات او الجماعات عبر الوقت ، فانها تكتسب صفة الثبات او الاستقرار . حقيقة اننا نستطيع أن نفكر فى نظام يوجد للحظة معينة ولكن خبرتنا بالحياة الاجتماعية لا تؤيدنا اذا فكرنا فى النظام الاجتماعى بهذه الطريقة . فالنظم الاجتماعية التى نألفها جميعا هى نظم راسخة ، ومستقرة ، لا تتغير بسهولة ، ولا تنهار بسهولة ايضا ، انها مستمرة ازلا . فالطبقة الاجتماعية ، على سبيل المثال ، التى تتسم بسمات اجتماعية اليوم ، لاتتغير غدا بحيث تتكون من

جماعة معينة اليوم ، وجماعة اخرى غدا ، وثالثة فى الأيام التالية ، وبالتالى يتغير برنامجها عبر الوقت ، فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن نعتبرها جماعة منظمة على الاطلاق . وهذا الثبات والاستمرار اللذان تتسم بهما الحياة الاجتماعية يمكنان من التنبؤ بالظروف الاجتماعية .

ويتفق بيرسى كوهن P. Cohen كثيرا مع لمى فى تعريفه للنظام **العام الاجتماعى** . فهو وان أضاف عناصر أخرى ، الا أن هذه العناصر من طبيعة واحدة وتقدم لنا تعريفا للمفهوم لا يختلف عن التعريف السابق فالنظام الاجتماعى العام عند كوهن (٣) له جوانب عديدة ، ينحصر الجانب الاول فى عملية الكبح Restraint وهو يعنى ضبط عملية العنف فى الحياة الاجتماعية ، أما الجانب الثانى فانه يشير الى وجود التبادل Reciprocity فى الحياة الاجتماعية ، فسلوك كل شخص ليس سلوكا عشوائيا ، أو تلقائيا ولكنه مكمل لسلوك الآخرين ، أما الجانب الثالث فانه يرتبط بالقابلية للتنبؤ Predictability فى الحياة الاجتماعية . فسلوك الأفراد لا يتصف بصفة « الاجتماعية» الا اذا كونوا توقعات متبادلة عن سلوك بعضهم البعض . والجانب الرابع يشير الى وجود الاتساق Consistency فى الحياة الاجتماعية ، فما دامت التوقعات قد تحققت فان سلوك الأفراد سوف يكون متسقا الى حد كبير . اما الجانب الخامس من جوانب النظام العام فانه يشير الى وجود الاستمرار أو المثابرة persistence فى الحياة الاجتماعية ، فلا يمكن أن يوجد تنبؤ أو اتساق فى الحياة الاجتماعية اذا لم تستمر اشكال هذه الحياة نفسها .

ويرتبط مفهوم النظام الاجتماعى العام بجانب آخر من الحياة الاجتماعية يعبر عنه مفهوم الترابط الاجتماعى **Social Cohesion** وهو يشير الى المواقف التى يرتبط فيها الأفراد بعضهم ببعض من خلال التزامات

---

(٣) Percy S. Cohen, **Modern Social Theory**, Heinmann, London, 1968, pp. 118—19.

ثقافية واجتماعية مشتركة . فالجماعة تخلق من القوى ما يشد الأفراد الى الارتباط بها والمحافظة على عضويتهم داخلها . من هذه القوى التزام الأفراد بالمعايير العامة والقيم ، والاعتماد المتبادل الذى تفرضه المصلحة المشتركة ، وتوحد الفرد مع الجماعة (٤) .

من ذلك الاستعراض لجوانب النظام والمفهومات التى يرتبط بها يتضح :

١ — أن مفهوم النظام الاجتماعى العام لا يعبر الا عن جوانب الاتساق والترابط فى الحياة الاجتماعية . فالحياة الاجتماعية تخلق لذاتها قواعد وقيما تضفى طابع النظام على المجتمع .

٢ — ان هذا المفهوم لا يشير الى جوانب الصراع والتغير فى الحياة الاجتماعية ، بل انه لا يفترض وجودهما اساسا ، فلملى — الذى قدمنا تعريفه للنظام فيما سبق — لا يتحدث عن التغير الا اذا كان تغيرا منظما orderly change انطلاقا من حقيقة أنه لا يوجد مجتمع يحقق الترتيب والاستقرار وتكامل العلاقات تحقيقا كاملا . ويأتى التغير المنظم من مصادر ثلاثة هى : العوامل الفيزيقية (الايكولوجية) والعوامل الفردية (التصور الفردى أو الابداع الفردى) ، والعوامل الاجتماعية (ويحصرها فى التأثيرات التى تأتى من الاحتكاك الثقافى) (٥) . كما أن كوهين اذا كان قد تحدث باختصار عن جوانب الصراع والتغير التى تقابل جوانب الاتساق والاستمرار فى الحياة الاجتماعية ، فان ذلك يعبر عن رؤية معينة للحياة الاجتماعية (٦) لا تدل على أن مفهوم النظام الاجتماعى يمكن أن يعبر عن جوانب الصراع . وتؤيد وجهة النظر هذه ما ذهب اليه جوليس جولد Julius Gould ووليم كولب (٧) William Kolm

---

(٤) Duncan Mitchell (ed.) **A dictionary of Sociology.**, Routledge and Kegan Paule, London, 1968, p. 165.

(٥) Lumly, Principales of Sociology, **op. cit.**, pp. 426—428

(٦) انظر عرضا لآراء كوهين فى الفصل الخامس من هذا البحث .

(٧) Julius Gould and William Kolb, **A Dictionary of Social Sciences.** The Free press of Colencoe, N.Y., 1964, p. 660.

(محررا قاموس العلوم الاجتماعية) من أن مفهوم النظام العام يدل على انتظامات التفاعل التى تقابل باجماع من المجتمع أو التى تكون مرتبطة بأدائه الوظيفى . ومن ثم فان العلامات التى تكشف عن الخلل الوظيفى تفسر على أنها مؤشرات للتفكك الاجتماعى العام ترتبط فى الغالب بجوانب يوتوبية أو اخلاقية تنبثق من مضمونه الامبيريقى ، فالكثير من الكتاب يعتبرون أن الصراع يؤدى الى سوء النظام أو اخفائه ، فهو مؤشر على انهيار ضوابط السلوك المستقرة .

وهناك فريق من العلماء ينطلق فى تعريف النظام الاجتماعى العام S. order من مفهوم النظام institution (٨) ، على اساس أن ذلك الأخير هو بؤرة النظام العام أساسه . من هؤلاء مارتندال Martindale وموناشيزى Monachesi اللذين عرفا النظم الاجتماعية بأنها تلك العلاقات — التى تنعكس فى قواعد السلوك — التى تربط بين الجماعات الاجتماعية . انها مجموعات من المبادىء التنظيمية ترسى الأساس الذى يقوم عليه الفعل الاجتماعى الذى تقبله الجماعة لتحقيق غاياتها . وكل مجموعة من هذه القواعد أو المبادىء تكون نظاما معينا ، ولكن اذا ما انتقلنا من دراسة هذه القواعد التى تميز نظاما معينا الى دراسة العلاقات المختلفة بين النظم فاننا نكون بصدد مفهوم جديد هو النظام الاجتماعى العام Social order. وعلى هذا ينتهى مارتندال وموناشيزى الى تعريف النظام العام بأنه « نماذج العلاقات الاجتماعية التى توحد بين المبادىء المنظمة التى تكون النظم الاجتماعية » (٩) .

وينفى مارتندال وزميله اضفاءهما لأى معنى معيارى أو تقييمى لمفهوم النظام العام ، فهما لايقصدان من استخدامه — على حد تعبيرهما — « أن الظواهر الاجتماعية تخضع للنظام ، أو أنها مفككة ، أو اكثر تنظيما من

---

(٨) آثرت أن أترجم كلمة institution بنظام على أن أميز بينها وبين كلمة Social order بالنظام العام

(٩) Don Martindale and Elio Monachesi, **Elements of Sociology**, Harper and Brothers Publishers, New York, 1951, pp. 218–219.

ظواهر أخرى » (١٠) . وهما يقرران ذلك لينفيا عنهما تهمة التحيز الأيديولوجى الذى يعبر عنه مفهوم النظام **العام الاجتماعى** ، غير انهما لم يوفقا فى ذلك ، فنجدهما يقرران بعد أن ينفيا تهمة الفهم التقييمى للنظام الاجتماعى العام أن ذلك الأخير يعنى « الترتيب » أو « العلاقات القائمة بين القواعد الاجتماعية والتى تطبق على الأفعال الاجتماعية » (١١) . ويكشف لنا هذا التعريف عن أن النظام العـــام يفهم بالمعنى المعيـــارى ، وأنه يقتصـــد به جوانب الترابط والاستمرار فى الحياة الاجتماعية دون الصراع والتغير . ويبدو أن جمهرة علماء الاجتماع الغربيين يجمعون على تعريف النظام الاجتماعى العام من خـــلال مفهوم النظام institution الذى يعد مفهوما اساسيا فى كل دراســـــاتهم وكتاباتهم .

ففى دائرة المعـــارف العالمية للعلوم الاجتماعية(١٢) ، يذهب ايزنشتات Eisenstadt الى أن النظم الاجتماعية هى البؤرة الرئيســـــية للتنظيم الاجتماعى . وللنظم الاجتماعية ثلاثة جوانب :

أولا : نماذج السلوك الذى تنظمه هذه النظم والتى ترتبط بالمشكلات الرئيسية للمجتمع .

ثانيا : تنظيم سلوك الأفراد وفقا لنماذج تنظيمية محددة .

ثالثا : هذه النماذج تتضمن ترتيبا وتنظيما معياريا ، أى أن التنظيم يتحقق من خلال المعايير والجزاءات التى تكسبها المعايير قدرا من الشرعية .

ومن هذه الجوانب نستطيع أن نشتق تعريفا للنظام الاجتمـــاعى بأنه « نماذج السلوك المنظمة وفق نسق من المعايير والجزاءات الشرعية » . واذا كان ايزنشتات يعتبر أن النظام الاجتماعى هو بؤرة التنظيم الاجتماعى

---

(١٠) Ibid., p. 220.

(١١) Ibid., p. 220.

(١٢) Eisenstadt, S.N. «Social Institution» in **International Encyclopedia of Social Sciences**, The Macmillan Company and the Free Press, 1968, p. 409.

فان النظام الاجتماعى العام يتكون فى هذه الحالة من جماع النظم المختلفة التى يحصرها ايزنشتات فى ستة نظم رئيسية : الأسرة ، والقـــرابة ، والتعليم ، والاقتصاد ، والسياسة ، والثقافة ، والتدرج الاجتماعى — فى عملية تفاعل وترابط . صحيح أن لكل نظام اجتماعى وحداته الأساسية (أفرادا وجماعات) كما أن له مصادره الخاصة (مثل العمل والسلع والنقود فى النظام الاقتصادى، والتوحد والتدعيم فى النظام السياسى) الا أن الواقع الامبيريقى يثرينا بعملية تفاعل هذه النظم المختلفة فى نظام اجتماعى مستقر ودائم .

من هذا المنطلق نستطيع أن نتصور المجتمع فى شكل هرمى (انظر شـــكل ١)قاعدته النظم الاجتمـــاعية Social Institutions التى تتـــكون من الأفراد والجماعات وما يحكم سلوكهم من قواعـــد ومعايير ، تنبثق منها التنظيمات الاجتماعية المختلفة ، وقمته النظام الاجتماعى العام الذى يعـــد بمثابة الهيكل العام او البوتقة التى تنصهر فيها هذه النظم وتلك التنظيمات ، والذى ينظم العـــلاقة بينها ويحقق بينها قدرا من الترتيب والاســـتقرار والاستمرار ، ويبث فيها قيما ومعايير تدعم هذا الثبات والاستمرار ، وتعمل فى نفس الوقت على حصر الصراع فى حدوده الدنيا ، وتعيد النظام اذا ما أصاب المجتمع قدر من التفكك أو سوء التنظيم .

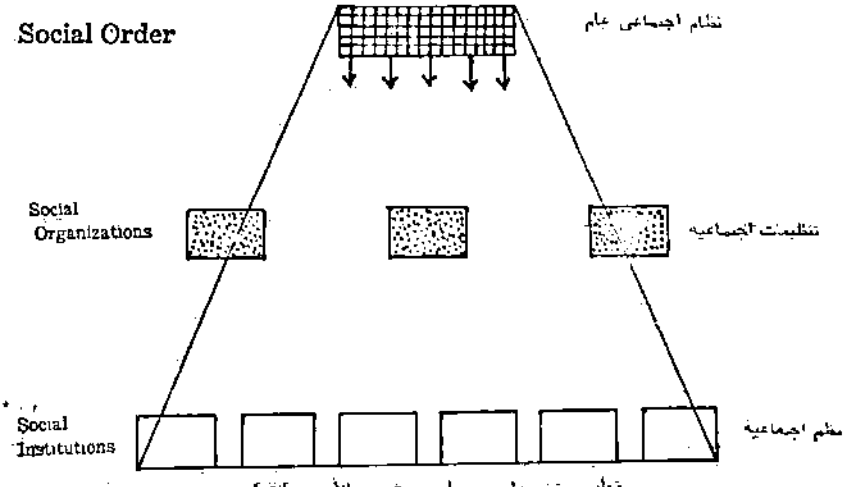

شكل ١ : النظام الاجتماعى العام والنظم الاجتماعية)

هذه باختصار صورة النظام الاجتماعي العام في ذهن علماء الاجتماع الغربيين . ولننتقل الآن من الحديث عن النظام العام الى مشـــكلة النظام العام : كيف ظهرت على يد توماس هوبز وما هو الحل الذى تصوره لها ؟

ثانيا : توماس هوبز وصياغة المشكلة :

عاش هوبز حتى قرب نهاية القرن السابع عشر (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩) وتأثر بظروف الاضطراب وعدم الاستقرار السياسى فى عصره الذى جاء على اثر حرب اهلية فى انجلترا . فجاءت أفكاره عن المجتمع أو الطبيعة البشرية متأثرة بهذه الظروف ، بالحياة الاجتماعية هى حالة حرب يدخل فيها الكل ضد الكل (١٣) . فالانسان تتملكه غريزة واحدة هى غريزة المحـــافظة على حياته ، وهذه الغريزة تدفعه الى الكفاح طول حياته ، فيظل مكافحا حتى يموت . وغريزة البقاء هذه تجعل الانسان يبحث عن الوسائل التى تكفل له الأمان ، وفى سبيل بحثه عن الأمان يلجأ الى وسائل القوة ، ولا يهتم الا بتوفير الطمأنينة لنفسه ، دون ان يعير غيره اى اهتمام الا اذا وجد ان بقاءهم وطمأنينتهم ضروريتان لبقائه وطمأنينته . ولهذا فان الحياة هى حالة حرب مستمرة بين الأفراد وبعضهم بعضا . فالفرد يسعى الى الحصول على كل ما يشعر انه فى حاجة اليه دون ان يعبأ برغبات الآخرين او احتياجاتهم ، وهذا يؤدى الى تشابك الناس واحتدامهم بعضهم ببعض(١٤) .

فى وجود هذه الحالة من الحرب تظهر مشكلة نظام فى المجتمع ولابد من وجود قوة تضمن للمجتمع قدرا كبيرا من النظـــام والاستمرار . ورأى هوبز أن هذه القوة يجب ان تكون الدولة التى يخضع لها الأفراد خضوعا مطلقا . وهو يتصورها على هيئة عملاق جبار أو وحش هائل Leviathan فى يده جميع السلطات وتخضع له كل المنظمات التى تتكون منها الدولة . فنظرية هوبز تقوم على التقابل بين الطبيعة البشرية القائمة على الغرائز

---

(١٣) D. Mitchell, A dictionary of Sociology, op. cit., p. 92.

(١٤) بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى ، **المدخل فى علم السياسة** ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، صص ٢٤٢ ــ ٢٤٤ .

والحرب والتى تضع امام الأفراد معضلة تحقيق النظام العام ، وبين العقل المهذب الذى يخلق الحل لهذه المشكلة . والحل عند هوبز هو القوة القهرية التى تمارسها الدولة على الأفراد . ولكى يكسب هوبز القوة القهرية قدرا من الشرعية لجأ الى نظرية « العقد الاجتماعى » فالمجتمع ينشأ نتيجة عقد يبرم بين الأفراد وبعضهم ، وبموجب هذا العقد يتنازلون عن جميع حقوقهم ويتعهدون بالخضوع لشخص واحد ، أو لعدة اشخاص يمثلون الحاكم (١٥) والحاكم له حرية التصرف فى استخدام القوة ، والقوة عنده تمثل فى القهر . فالأفراد يفعلون ما هو مطلوب منهم لأنهم يرغمون على ذلك بواسطة من يملكون وسائل القهر ، وسوف يقابلون بالعقاب اذا امتنعوا عن ذلك . والقوة القهرية هذه تحقق كل جوانب النظام الاجتماعى العام . فالأفراد الذين يخافون العقاب ينفذون التزاماتهم ، ويتوقعون من الآخرين نفس الشىء ومن ثم يتحقق بينهم قدر من الترابط والاتساق فى المعايير تجعل الحياة الاجتماعية قادرة على الاستمرار (١٦) .

وتتلخص وجهة نظر هوبز فى عبارته التالية :

« ان العهود بدون السيف (القوة) ليست الا كلمات لا قدرة لها قط على المحافظة على حياة الانسان ، والكلمات اصعب من أن تستطيع ردع طموح الأفراد ، أو طموحهم ، أو غضبهم ، أو انفعالاتهم » (١٧) .

ويلخص ديسموند اليس D. Ellis مشكلة النظام عند هوبز فى العبارات التالية : « فى الاطار الاجتماعى الذى تكون فيه الوسائل نادرة دائما بالنسبة للرغبات (الحاجات) لا تظهر معاملات عادلة بين الوحدات الاجتماعية . فمن خلال الاحباطات والتشجيعات التى تفرض على اختيار الأنا ego والآخر alter للوسائل ، تأخذ اى علاقة تبادلية شكلا من الاشكال التالية : تبادل ايجابى ذو جانبين — وفيه يكسب الأنا والآخر ، وتبادل سلبى ذو جانب واحد وفيه يكسب الأنا او الآخر ، وتبادل سلبى ذو جانبين — وفيه يخسر كلا الطرفين . وفى اثناء عملية البحث المستمر

---

(١٥) المرجع السابق مباشرة ، ص ٢٤٧ .

(١٦) Percy Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 21.

(١٧) نقلا عن بطرس غالى وزميله ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦—٢٤٧

عن الربح والمصلحة الذاتية ، يظهر ميل لاختيار الوسائل حسب كفاءتها الاجرائية ، او اتجاه نحو اشباع الرغبات بالاعتماد على الآخرين . ولوجود هذين الاحتمالين فان صور التبادل الايجابية تتوقف ، وتتحول العلاقات بين الأفراد الى علاقات سلبية ذات جانب واحد ، وتتحول هذه العلاقات بالضرورة الى حالة فظة من الحرب . فكيف السبيل الى تحويل المجتمع الى مجتمع منظم تنظم فيه اساليب استخدام العنف والخداع بحيث لاتختفى علاقات التبادل الايجابية . هذه هى المشكلة التى اهتم هوبز بحلها اهتماما كبيرا (١٨) .

ولقد استطاع هوبز — من خلال نظرية القوة والعقد الاجتماعى — أن يتصور واقعا امبيريقيا خاليا من الصراع والعنف والخداع ، واقعا تحل فيه مشكلة النظام العام . ونستطيع فى حدود هذا القدر من المعرفة عن مفهوم النظام ومشكلته أن نستخلص النتائج التالية :

١ — اذا كان مفهوم النظام الاجتماعى العام يحذف الصراع من الحياة الاجتماعية ، فان مشكلة النظام تنحصر فى كيفية التغلب عليه وابعاده على اختلاف وسائل ذلك .

٢ — انه اذا كنا قد قررنا آنفا أن مفهوم النظام العام يكشف عن معانى تقييمية ايديولوجية ، فان الحديث عن مشكلة النظام العام يمثل التجسيد الواقعى لهذا التحيز الأيديولوجى فى النظر الى الحياة الاجتماعية .

٣ — مشكلة النظام فى جوهرها مشكلة فلسفية اساسها هو التساؤل حول الطبيعة البشرية التى تتميز بالأنانية والعداوة ولكنها تميل بالطبيعة الى العيش فى مجتمع منظم ، ما الذى يدفع الافراد الى المشاركة فى المجتمع ؟ ولماذا يظهر المجتمع الى حيز الوجود فى المحل الأول ؟ وماالذى

---

(١٨) D. Ellis, «The Hobbesian Problem of Order : A Critical Apprisal to the Normative Solution» A.S.R. Vol. 36. August, 19711, p. 693.

يحقق النظام داخل هـذا المجتمع ؟ هـذه هى الأسئلة التى يسـعى الفيلسوف المهتم بمشكلة النظام الى الاجابة عليها .

٤ ـ من هنا تأتى اهمية هذه المشكلة الفلسفية ـ الابيريقية فى دراسة المعرفة السوسيولوجية فى الدول الانجلو ساكسونية . فان تلك المعرفة اذا كانت قد ظهرت استجابة لمشـكلة النظام ، فانها تنظـر الى المجتمع نظرة خاصة وتفسره فى ضوء الاتساق والتناغم والاستمرار على ما تكشف لنا الفقرة التالية .

ثالثا : نظرية علم الاجتماع ومشكلة النظام العام :

يجمع المفكرون السوسيولوجيون على ان نظريات علم الاجتماع جاءت كلها عبر تطورها الطويل كرد فعل لمشكلة النظام فى المجتمع . وربما كان هذا هو السبب فى اننى اتخذت من مفهوم النظام العام مدخلا اساسيا لعرض بعض الاتجاهات النظرية الكلاسيكية أو المحدثة فى علم الاجتماع انطلاقا من اعتقاد مؤداه أن تطور الفكر السوسيولوجى يعتبر سلسلة من الطفرات فى فكرة القهرالخارجى التى طورهـا توماس هوبز . والقول بـأن علم الاجتماع قد ظهر وتطور كرد فعل لمشكلة النظام يجعلنا نستشـعر تلك العلاقة الوثيقة بين الواقع الاجتماعى والنظريات التى تفسره . فكل نظرة هى انعكاس لواقع اجتماعى معين مهما كانت درجة التجديد فى هـذه النظرية . ولكن ارتباط النظرية بمشكلة النظام لا تجعل النظرية انعكاسا لواقع اجتماعى فحسب ، ولكنها انعكاس لواقع مفكك أو حتى مجموعة من الأفكار التى تفسر هذا الواقع على أنه يعيش عملية صراع ابدى . وهـذه القضـية تجعلنـا نسـتشعر علاقة خفية بين نظريات علم الاجتمـاع والأيديولوجية . فالنظريات التى تنظر الى الواقع الاجتماعى من مفهوم النظام العـام لابد ان تكون نظريات ذات نزعة محافظة Conservative تتصور عناصر الواقع الاجتماعى فى تكامل وتفاعل مستمر ، وتضفى عليـه طابع الاستقرار والثبات ، بحيث يتعالى هذا التكامل وذلك الاستقرار بالمجتمع الى حالة من التساند الوظيفى يعتبر فيها الصراع شيئا شاذا او تيارا منحرفا داخل المجتمع . ومن وجهة النظر هذه يظهر الاهتمام بمفاهيم معينة

على حســـــاب مفاهيم اخرى . فمن المفاهيم الشائعة فى علم الاجتماع الغربى مفاهيم السلطة ، والجماعة ، والمجتمع المقدس ، والعضـــوى ، والوظيفة (١٩) ، بينما تصاغ مفاهيم اخرى مثل الصراع والتغير فى أضيق الحدود .

ولعل هذا هو الذى دفع روبرت نيسبت الى أن يعتبر أن مفاهيـــم الجماعة Community والسلطة Authority والمكانة Status والاغتراب Alienation هى المفـــاهيم او الأفكار الرئيسية Unit-ideas فى عـــلم الاجتمـــاع . بل انه فضـــل ان يتخـــذ هـــذه الأفـــكار او المفـــاهيم مدخـــلا لدراسة التراث السوســـــيولوجى (٢٠) . ان هذه الأفكار أو المفاهيم لها صفة العمومية والاستمرار والتميز داخل علم الاجتماع كما انها خلقت قضـــايا أو مفـــاهيم مضـــادة Antithesis ففى مقـــابل الجمـــاعة ظهر مفهوم المجتمع ، وفى مقابل مفهوم السلطة ظهر مفهوم القوة . وفى مقابل مفهوم المكانة ظهر مفهوم الطبقة ، وفى مقـــابل مفهوم المجتمع المقدس ظهر مفهوم المجتمع العلمانى ، أما مفهوم الاغتراب فهو يرتبط دائما بمفهوم التقدم (٢١) . وهذا التضاد بين المفاهيم يعكس تضادا معرفيا بين ثلاثـــة أيديولوجيات ســـــادت فى القرن التـــاسع عشر وأوائل القرن العشرين الليبرالية ، والراديكالية ، والنزعة المحافظة وهى أيديولوجيات شـــكلتها الظروف التى ترتبت على الثورة الفرنسية والثورة الصناعية (٢٢) . وهذه الظروف بطبيعة الحال هى التى أحيت مشكلة النظام التى أثارها هوبز وبالتالى شكلت كل الفكر السوسيولوجى فى القرن التاسع عشر وحتى اليوم .

---

(١٩) Alan Dawe, «The two Sociologies» in : Kenneth Thompson and Jeremy Junstall (eds) Sociological perspectives, penguin Books, 1971, p. 542.

(٢٠) Robert Nisbet, **The Sociological Tradition**, Heinmann, London, 1971, p. 5.

(٢١) Ibid., p. 7.

(٢٢) Ibid., pp. 9—10.

وسوف نستفيض فى هذا الموضوع فى الفصل القادم ، وما يهمنا الآن هو أن نناقش تلك القضية النظرية البحتة والتى تتعلق باتصال نظريات علم الاجتماع بمشكلة النظام العام فى المجتمع ورأى بعض علماء الاجتماع فى هذا الموضوع . الواضح أن علماء الاجتماع ينقسمون حول هذا الموضوع . فبعضهم يقرر صراحة ان ظهور علم الاجتماع قد تشكل حول مشكلة النظام . ولكن بعضهم يحاول أن ينفى تهمة التحيز الأيديولوجى التى ترتبط بهذه المشكلة . وبعضهم الآخر يرى النظام العام قائم بالفعل وأن هدف علم الاجتماع دراسته واستقصاؤه . ولايزال هناك بعض العلماء الذين يرفضون هذه المشكلة رفضا . وطبيعى أن يظهر هذا الخلاف . فاذا كانت النظرية السوسيولوجيه تتشكل بالضرورة من خلال الاطار الاجتماعى والايديولوجى ، فان معالجة هذه النظريات او محاولة تتبع تطورها لابد وأن يطبع بالضرورة بالطابع الايديولوجى . وبناء على ذلك فاذا كان علم الاجتماع قد تعرض مؤخرا لموجات نقدية ، فانه من الطبعيى أن يولد علم الاجتماع من داخله تيارات معاكسة لهذه الحركة النقدية .

ربما كان رأى روبرت نيسبت فى هذا الموضوع هو الذى يصور الحقيقة بموضوعية تامة . يقول فى كتابه « التراث السوسيولوجى » ، « يمكن فهم الأفكار الأساسية فى علم الاجتماع الأوروبى فهما جيدا على انها استجابات لمشكلة النظام التى ظهرت فى بداية القرن التاسع عشر كنتيجة لانهيار النظام القديم تحت تأثير نزعة التصنيع والديمقراطية الثورية . وهذه هى النتيجة الوحيدة التى يتوصل اليها الفرد عندما ماينظر الى طابع الأفكار ، وطبيعة الأعمال التى ظهرت فيها هذه الأفكار ، وعلاقة كل فكرة وكل عمل بالعصر الذى ظهر فيه . فالعناصر الفكرية لعلم الاجتماع ماهى الا انعكاس لنفس القوى والتوترات التى ادت الى ظهور النزعة الليبرالية ، والاتجاه المحافظ ، والاتجاه الراديكالى » (٢٣) .

وتتضح من كلمات نسبت تلك العلامة الوثيقة التى تربط النظريات

---

(٢٣) Ibid., p. 21.

السوسيولوجية فى القرن التاسع عشر بالواقع المفكك للمجتمع الذى يحتاج الى نظام ، كما تتضح فكرة التحيز الأيديولوجى ، ولكن نسيت قصر حديثه على علماء القرن التاسع عشر ، ولم يتطرق الى علماء القرن العشرين أمثال بارسونز والعلماء المحدثين ليربط بين مشروعاتهم النظرية أو الظروف الاجتماعية والمعرفية التى أثرت عليهم ، وذلك جانب من المهمة التى اضطلع بها بحثى هذا حيث يتم الكشف عن امتدادات مشكلة النظام فى الفكر السوسيولوجى المعاصر .

ولكن بيرسى كوهن Cohen وشاروك Sherrock يعتبران أن مشكلة النظام هى المشكلة الرئيسية فى النظرية السوسيولوجية ، ولكنهما ينفيان تهمة التحيز الأيديولوجى المرتبطة بهذه المشكلة ، على اختلاف منطلقاتهما فى هذا الصدد . يذهب كوهين الى انه بالرغم من أن الأفراد فى كافة المجتمعات يرغبون بالفعل فى النظام ، الا انه من الممكن ألا يقبلوا أى قدر منه ، واننا لا نستطيع أن نفهم عدم النظام الا فى ضوء النظام ذاته ، فالبحث فى المشكلة يلقى الضوء على عدم النظام من وجوه عديدة (٢٤) . ففى نظر كوهن أن كل جانب من جوانب النظام — القهر ، التبادل ، التنبؤ ، الاتساق ، والاستمرار — له جانبه المضاد . فالتبادل والتعاون والصراع والتعارض يمكن أن تظهر جميعها فى العلاقات الاجتماعية . واذا كان هناك اتساق واستمرار فى الحياة الاجتماعية فلابد أن تكون هناك مجالات لعدم الاستقرار والصراع ، ناتج عن صراع المبادىء ، أو صراع بين ما هو متوقع وما هو ممكن . ولهذا فان الاستمرار والتغير سمتان أساسيتان للحياة الاجتماعية (٢٥) . ولذلك ففى تفسيره لنظريات النظام الاجتماعى العام — والتى حصرها فى نظرية القهر ، ونظرية المصلحة ، ونظرية الاتساق العام ، ونظرية القصور الذاتى — أوضح أن أيا من هذه النظريات يمكن ان يفسر النظام وعدم النظام فى ذات الوقت(٢٦) .

والحقيقة أن موقف كوهن هذا ينبثق من وجهة نظر فى معالجة الواقع الاجتماعى ودراسة النظرية السوسيولوجية . فهو يدخل فى نطاق تلك الفئة

---

(٢٤) Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 18

(٢٥) Ibid., pp. 20—21.

من العلماء الذين حاولوا أن يربطوا بذكاء بين نظريات الصراع والتغير ونظريات التكامل والاجماع على القيم . وقد انعكس ذلك حتى فى معالجته للنظرية السوسيولوجية حيث انقسمت معالجته الى قسمين أحدهما يدرس النظريات الكلية والذرية ، والآخر يدرس التغير الاجتماعى ، واتجاهات هذا التغير ، وسوف نتعرض لآرائه بالتفصيل فى الفصل الخامس من هذا البحث .

أما شـــاروك Sharrock فيذهب الى انه ليس من الضرورى أن ينتهى الاهتمام بمشكلة النظام الى الاتجاه المحافظ ورفض دور كل من الصراع والقهر والخداع فى الحياة الاجتماعية . بل انه يذهب الى أبعد من ذلك حيث يقول : « .. ان هؤلاء الذين اهتموا بمشـــكلة النظام كانوا على وعى بالطبيعة الهشة والواهنة للنظام الاجتماعى ، وبالصورة التى تظهر بها القوة والخداع فى العـــلاقات الاجتماعية . وركز هؤلاء المنظرون على مشكلة النظـــام لأنهم شاهدوا أن حقائق الصراع والانقسام ومصادر كل منهما أكثر وضوحا فى المجتمع ، أما الشىء الناقص فهو طبيعة ومصادر هذه القوى التى تحـــد من استخدام القهر وتحتويه ، والتى يمكن عن طريقها تحقيق قدر من التضامن والاستمرار والاتساق فى المجتمع » (٢٧) . فالقسر والخداع — وهمـــا مصدر الصراع فى نظره — لايفسران وحدهما طبيعة الحياة الاجتماعية . فمهما يكن فى المجتمع من صراع واسع النطاق ، فان اعضاءه يرتبطون بعضهم ببعض بطريقة أو بأخرى « فالحياة الاجتماعية لا يمكن أن تستمر من خلال القسر وحده ، واذا ما افترضنا أنها يمكن أن تستمر فانها سوف تؤدى بنا الى انحدار لانهائى ، لأن كل فرد يضطر الى أن يسلك حسب مايرى فرد آخر ، الذى ينصاع بدوره لفرد آخر وهكذا الى مالا نهاية » (٢٨) .

ولكن رغم قوله هذا ، فانه عندما يتحدث بالتفصيل عن مشكلة النظام يكتفى بتوضيح الجوانب المتناغمة للحياة الاجتماعية ويكتفى بالقول بأن تفسيره .

---

(٢٦) Ibid., pp. 21—31.

(٢٧) W.W. Sharrock, «The Problem of order» in : Peter Worsley (ed.) Introducing Sociology, Penguin Books, p. 339.

(٢٨) Ibid., p. 340.

«للاتساق والاستقرار داخل المجتمع تفسيرا كافيا ، يعتبر ايضا تفسيرا للصراع والتغير ، لأننا اثناء تحديد الظروف التى من خلالها تستمر المجتمعات ، نفترض فى نفس الوقت انه اذا لم تستمر هذه الظروف فـــان المجتمع سوف يتغير » (٢٩) . واذا استعرضنا آراءه بالتفصيل يتضـــح لنـــا بجلاء موقفـــه الايديولوجى . فهناك — فى نظره — مجموعة من المشكلات يحلها الأفراد فيما بينهم ويتحقق من خلالها الاتساق والتضامن بين عناصر الواقع الاجتماعى. هذه المشكلات هى مشكلة المعنى ، ومشكلة الضبط ، ومشكلة الوحدة الاجتماعية . وكل مشكلة من هذه المشكلات تكشف عن مستوى معين من مستويات الواقع الاجتماعى . ففى مشكلة المعنى يكون التحليل على مستوى الفرد ، وفى مشكلة الضبط الاجتماعى يكون التحليل على مستوى الجماعة الصغيرة والتنظيمات الاجتماعية الأوسع نطاقا ، بينما يكون المجتمع ككل هو بؤرة الاهتمام عند مناقشة وحدة الحياة الاجتماعية ، على ان نعى (أو نحتفظ فى الذهن) بالترابط والتفاعل الوثيق بين هذه المستويات الثلاثة(٣٠) .

بالنسبة لمشكلة المعنى نجد ان الأفراد يخبرون العـــالم الذى يعيشـــون فيـــه على أنه عالم محسوس له معنى . فأحـــداث الحيـــاة ، والآخرون ، والموضوعات ، كلها أشياء يعيها ادراك الفرد . ومن ثم يسلك بطريقة متوقعة . ولا يتم هذا الادراك بطريقة تعسفية ، ولكنه جزء من عملية التنشئة الاجتماعية والتعلم . ولايدرك الفرد كل الأشياء بطريقة واحدة فادراكه لها ادراك انتقائى يعتمد على درجة معرفته بالشىء ، ومعلوماته عنه ، ومصالحه المرتبطة به . وادراك الفرد للعالم على هذا النحـــو يجعله قادرا على أن يزن الأمور لا شعوريا ، وأن يجتاز المعضلات التى تفرضها عليه المواقف المختلفة ، ويستشرف آفاق المستقبل فى بعض الأمور التى تحـــدد أمامه بطريقة دقيقـــة . ويربط شاروك بين هذا الادراك للعالم واكسابه معنى وبين الثقافة ، فالوســـائل التى يستخدمها الفرد لينظم خبرته فى أنماط سلوكية تنبثق اساسا من ثقافة الجماعة . ومن هـــذه الوسائل وأهمها على الاطلاق ، اللغة وما يرتبط بها من اشـــارات غير

---

(٢٩) Ibid, p. 340.

(٣٠) Ibid., p. 341.

لفظيـــة ومن رموز تعبيرية كالمظهـــر والمـــلابس ، وملامح ولون البشرة ، وهى تسهل عملية الاتصال ، ومن هذه الوسائل المعتقدات التى يكتسبها الفرد خلال عضويته بالجماعة ، والقيم التى تجعل الفرد يفضل موقفا عن موقف آخر ويكون فكرة عن الخير والشر فى المجتمع الذى يعيش فيه ، والدين الذى يقدم تفسيرا معينا لعلاقة الانسان بالانسان وللأحداث اليومية وكلها أشياء من نتاج الوجود الجمعى . خلاصة القول أن الأفراد يحسون العالم من حـــولهم ويدركونه بطريقة خاصة ويخلقون من الأســـاليب الثقافية ما يجعلهم قادرين على السلوك داخله والتحكم فى مصيرهم وتحقيق الأهداف التى ينشدونها (٣١) .

المشكلة الثانية التى يتحدث عنها شاروك هى مشكلة الضبط الاجتماعى فالأفراد لا يصنعون القرارات أو يختارون البدائل جزافا ، ولكنهم يفعلون ذلك داخل اطار من القواعد يشاركون فيها الاخرين . وتطبيقها عليهم جميعا ومشاركتهم فيها هى التى تجعل سلوكهم قابلا للتنبؤ . ولكن تطبيق هـــذه القواعد لايعنى الغاء الارادة الفردية . فحياة الأفراد فى المجتمع تتيح لكل منهم الحرية فى أن يتصرف وفق ارادته شريطة الا يخرق قواعد المجتمع ويتوافق الأفراد مع هذه القواعد لأنهم يتمثلونها من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، كما أنهم يخافون دائما من العقاب أو الجزاء الذى يأخذ صورة سلبية . وهذه القواعد هى التى تضفى طابع الاستقرار والاستمرار على العلاقات الاجتماعيـــة وميكانزمات الضبط الاجتماعى هى التى تمنـــع الأفراد من مخالفة هذه القواعد أو الانحراف عنها . ويرتبط الخضوع لقواعد المجتمع بقضية الاجماع على القيم value Consensus فالاجماع العام على القيـــم يخلق نوعا من التكامل بين القواعد المختلفة التى تحكم سلوك الأفراد ، كما أنه يزكى الشعور بالتضامن والوحدة بين الناس ، فلدى الفرد دائما ميل لأن يرتبط بالأفراد الذين يشاركونه القيم ، فى الوقت الذى يبعد فيه عن الأفراد الذين تتعارض قيمهم مع قيمه وتتصارع معها . وهكذا تساهم القواعد وما يرتبط بها من مكانيزمات للضبط ، وما يرتبط بها من قيم فى تحقيق التكامل والقضاء على الصراع بين الأفراد . غير أن التكامل المطلق لا يمكن تحقيقه داخل المجتمع،

---

(٣١) Ibid., p. 341.

فهناك مظاهر للانحراف عن القيم والمعايير ولقواعد وذلك في حالة ضعف هذه القواعد ، وضعف ميكانزمات الضبط ، أو سوء التنشئة الاجتماعية(٣٢) .

وفى مناقشة لمشكلة وحدة المجتمع ينطلق أيضا من قضية الاجماع على القيم ولكنه هنا يناظر بينهما وبين نموذج الصراع على أساس أن هناك مجالات للاتفاق بينهما . فكلا من هذين الاتجاهين يهتم بمشكلة وحدة المجتمع ، حيث يحاول كل منهما الاجابة على سؤال مؤداه : تحت أى الظروف يمكن أن تتحد المجتمعات وتستقر ، وتحت أى الظروف يمكن أن تتغير ، أو ينعدم تكاملها؟ والاختلاف بين النموذجين يتمثل فى الاجابة التى يقدمها كل منهما على هذا السؤال . حيث صاغ كل منهما مجموعة من الافتراضات عن طبيعة الانسان والمجتمع ، وانحدرت الآراء الباقية من هذه الافتراضات(٣٣) ويحاول شاروك ان يستعرض نقاط الاختلاف والالتقاء بين هذين النموذجين .

وما يهمنا الآن هو أن شاروك — وان حاول الربط بين نموذجى الصراع والاجماع على القيم ليتصور الواقع تصورا مكتملا — الا ان حديثه المستفيض عن الضبط الاجتماعى يوضح انه يفضل حلا معينا لمشكلة النظام هو ذلك القائم على الاجماع . كما أن اهتمامه بمشكلة المعنى ، وان كان يعكس اهتماما فينومينولوجيا ، الا أن فهمه لمشكلة المعنى أو التركيب الاجتماعى Social Construction للواقع يرتبط ارتباطا كبيرا بقضية الاجماع العام على القيم . القيم .

هذه نماذج من آراء علماء الاجماع الذين يذهبون الى القول بأن نظريات العلم تلتف حول مشكلة النظام العام فى المجتمع . وهناك بعض العلماء الذين ينظرون الى مشكلة النظام من زاوية اخرى . بعضهم يرى أن النظام كامن فى الطبيعة بالفعل وأن مهمة علم الاجتماع تنحصر فى تفسيره ، وبعضهم الآخر يرى أن نظريات علم الاجتماع كلها لم تتركز حول مشكلة النظام وانما هناك مشكلة اخرى هى مشكلة الضبط ، بينما يشكك بعض آخر فى وجود المشكلة فى المحل الأول .

---

(٣٢) Ibid., pp. 355—373.

(٣٣) Ibid., p. 374.

يذهب الكس انكلز Inkles (٣٤) الى أن المشكلة الأساسية التى يعنى علم الاجتماع بدراستها هى تفسير طبيعة كل من النظام الاجتماعى والتفكك الاجتماعى . فثمة نظام كامن فى الطبيعة ، وعلم الاجتماع يسعى الى اكتشاف ووصف وتفسير النظام الذى يميز الحياة الاجتماعية للانسان وحينما نتناول النظام فاننا نقصد أن الأحداث تتم فى شكل تتابع منتظم بحيث يمكننا صياغة أحكام قابلة للتحقيق الامبيريقى حول علاقة حادثة بحادثة أخرى عند نقطة معينة من الزمن وتحت ظروف محددة . فالأفراد فى حياتهم اليومية يقومون بملايين الأفعال الاجتماعية حول تفاعلاتهم اليومية ، وذلك الكم الهائل من الأفعال لايؤدى الى الفوضى او الاضطراب ، بل يؤدى الى ظهور ضرب من النظام ، ذلك النظام الذى يمكن الفرد من أن يحقق أهدافه دون تداخل أو تضارب مع أهداف الآخرين ، ومهمة علم الاجتماع تنحصر فى كيفية حدوث ذلك وكيف يؤدى التنسيق بين الأفعال المتنوعة الصادرة من الأفراد الى تدفق الحياة الاجتماعية واستمرارها .

والاهتمام بمشكلة النظام (التى حلت بالفعل فى نظر انكلز) لا يقودنا الى الزعم بأن عالم الاجتماع لايهتم بدراسة اعراض التفكك الاجتماعى ، فليس هناك نسق اجتماعى يؤدى وظائفه فى انسياب كامل . ومن الأمور الجوهرية فى الحياة الانسانية أن البعض قد لا يستطيع الالتزام بالمعايير ، وأن البعض الآخر قد لا يتمكن من تحقيق أهدافه ، وتشهد المجتمعات دائما فترات اضطراب وحروب اهلية وعنف وارهاب وجريمة وتفكك عام ،وكل هذه المظاهر تمثل خرقا للنظام الاجتماعى القائم . فهناك قوى على المستوى الاجتماعى والفردى تسهم فى أحداث النظام والاستقرار ، وأخرى تسهم فى أحداث التفكك والصراع . ويبدو أن لدى الناس ميلا شخصيا أو فلسفيا لرؤية العالم المحيط بهم من أحد منظورين، اما أن يكون العالم فى حالة فوضى أو تفكك بحيث يتعين عليه أن يناضل من أجل تحقيق قدر من النظام ، وأما أن يكون فى حالة نظام ولكنه خاضع لتهديد التفكك . ويضيف « أما وجهة نظرى فى هذا الموضوع فهى أن النظام يمثل طرفا أساسيا للانسان ، وبدون قدر من النظام لا يستطيع الانسان

---

(٣٤) الكس انكلز ، **مقدمة فى علم الاجتماع** ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وزملائه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٤ ، صص ٦٨ — ٧٢ .

الاستمرار فى البقاء ويرجع تفكك بعض المجتمعات الى اخفاقها فى حل مشكلة النظام » (٣٥) .

أما الن داو Dawe (٣٦) فيقرر أن القول بأن مشكلة النظام العام هى البؤرة التى التف حولها علم الاجتماع أصبح من كلاسيكيات العلم . ورغم ذلك لا يرفض داو هذه الفكرة رفضا مطلقا ولكنه يجيزها بالنسبة لجانب معين من النظرية السوسيولوجية هو نظرية النسق . « ففكرة القهر الخارجى هى التى ربطت علم الاجتماع بمشكلة النظام ، وانتج هذا الارتباط منظورا خاصا داخل علم الاجتماع ، والمناسب أن نطلق عليه نظرية الاتساق . ويكمن جوهر فكرة القهر الخارجى فى أن الأفراد لا يستطيعون أن يحافظوا على النظام بمحض ارادتهم ، ومن ثم فان القهر ضرورى لكى يوجد المجتمع ، وبدونه يكون الاحتمال المطروح هو حرب الكل ضد الكل . وبناء على ذلك فأن المجتمع يجب أن يحدد المعانى الاجتماعية ، والعلاقات الاجتماعية ، وسلوك أعضائه .. بمعنى آخر يجب أن يكون مكيفا ذاتيا ومحافظا على ذاته » (٣٧) .

ولكن هناك داخل التراث السوسيولوجى ، وما يزال الكلام لآلان داو ، نظرية الفعل الاجتماعى . لقد كانت هذه النظرية نتاج مشكلة أخرى خلاف مشكلة النظام هى مشكلة الضبط . فتلك الأخيرة ولدت مفهومين هامين استطاعت من خلالهما أن تخلق علم اجتماع مميز على المستوى النظرى والموضوعى . المفهوم الأول يطلق عليه آلان داو مفهوم المعنى المركزى Central meaning وهو يتجسد فى علاقة المعنى بالمواقف التاريخية الفعلية ، حيث تجمع العلاقة مجريات الفعل فى انساق للمعنى . فمحاولة اضفاء معنى على الواقع تمثل محاولة من جانب الفاعل لأن يخير المواقف التى يمر بها فى ضوء معنى عام . اما المفهوم الآخر فهو مفهوم الضبط Control وهو يرتبط بمفهوم الاطار المرجعى للفعل كمفهوم تحليلى بنفس الدرجة التى يرتبط بها مفهوم النظام بالاطار المرجعى للنسق الاجتماعى .

---

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٧٠

(٣٦) Alen Dawe, «The two Sociologies» op cit., pp. 542—552.

(٣٧) Ibid., p. 543.

فمن ناحية نجد الن داو يضيف بعد الفعل الى بعد المعنى . فلكى تتحكم (تضبط) فى موقف معين يجب ان تضفى عليه معنى من خلال السلوك داخله ومن ناحية اخرى فانه يضيف بعد التفاعل ، أو العلاقة بين الفاعلين : فلكى تتحكم (تضبط) موقفا معينا لابد أن تفرض تعريفا محددا للموقف على الفاعلين الآخرين داخل الموقف . بذلك يكون مفهوم الضبط الاجتماعى يشير الى العلاقات الاجتماعية التى لايمكن ارجاعها الى الأفراد أو افعالهم الفردية ، وهى تعمل على تكامل الفاعلين فى داخل انساق التفاعل (٣٨) .

بناء على ذلك يكون هناك داخل علم الاجتماع قدر من الاستقطاب بين نظريتى أو علمى اجتماع Two Sociologies ــ على حد تعبيره ــ أحدهما خاص بالانساق والآخر خاص بالفعل الاجتماعى،ويرتبطان بمشكلتين مختلفتين النظام والضبط . ويبدو الاستقطاب أو الصراع بين هاتين النظريتين فى أن لكل منهما تصورا خاصا للطبيعة البشرية ، والمجتمع والعلاقة بين الفرد والجماعة . تؤكد الأولى ضرورة القهر الخارجى ، والثانية تؤكد فكرة الانسان المستقل القادر على أن يصنع مجتمعه بنفسه . ويذهب الن داو الى أبعد من ذلك حيث يقرر ان علم الاجتماع قد تطور من خلال الصراع بين هاتين النظريتين . ويمكن تلمس هذا الصراع فى أفكار جهابذة علم الاجتماع ؛ ففى افكار دوركايم مثلا يتبدى هذا الصراع فى تبريره للنزعة الفردية الرشيدة ثم احترامه للقيم الجمعية ، و فى افكار بارسونز ــ اذا شئنا مثالا آخر ــ فى تغير آراء بارسونز من تأكيد العلاقة الخلاقة بين الأفراد والقيم فى عمله الأول الى العلاقة الايجابية المتكيفة فى اعماله اخيرة (٣٩) .

الواقع انه لابد من التعقيب على آراء الن داو لما لها من طابع خاص ، ولأنها تعارض الفكرة التى تقود تفكيرنا فى هذا البحث والخاصة بالتفاف نظريات علم الاجتماع حول مشكلة النظام . يفصل داو بين النظام والضبط ويربط الضبط بمشكلة المعنى . ولكن هذا الفصل لا يمكن ان نقره . ولو استعرضنا آراء شاروك السالف عرض جزء منها لاتضحت لنا تلك العلاقة التى تربط بين مفهوم المعنى ومفهوم الضبط ومفهوم النظام . ثم أن فكرة

---

(٣٨) Ibid., p. 549.

(٣٩) Ibid., pp. 551—552.

الضبط التى يربطها داو بنظرية الفعل هى اكثر الأفكار ارتباطا بالنظام من حيث أن الضبط يولد من الميكانزمات ما يحقق تكامل الجماعة واستقرارها ، حقيقة أن داو يفهم الضبط فهما خاصا يرتبط لاشك باهتمامات فينومينولوجية ، ولكن أيا كان مفهوم الضبط فانه يهدف فى النهاية الى تحقيق التكامل . وسوف نرى من استعراضنا لنظريات علم الاجتماع التى تسعى لتحقيق التكامل والاستقرار أن مفهوم الضبط يعد احد المفاهيم الهامة فى الأطر النظرية التى تقدمها . فضلا عن ذلك فأن الفصل بين نظرية الفعل ونظرية النسق هذا فصل تعسفى ، ذلك لأن نظرية الفعل تكون الأساس أو البؤرة التى تلتف حولها نظرية النسق(٤٠) . وحتى لو افترضنا — تجاوزا — هذا الفصل بين نظرية الفعل ونظرية النسق ، فانه لايمكن أن يتم على مستوى فكر الباحث الفرد ، على ما يذهب الن داو . فالمحقق أن فكر كل باحث يعتبر سلسلة متصلة الحلقات ، ففكر دوركايم عن النزعة الفردية لا يمكن أن ينفصل عن آرائه فى القيم الجمعية، والنظرية الطوعية عند بارسونز لا يمكن أن ينفصل عن نظرية النسق . واذا كانت فكرة داو تثير جدلا كبيرا وتفتح الطريق امام محاولات لتأريخ الفكر السوسيولوجى على أسس جديدة ، فانها لاتجب الفكرة الرئيسية المأخوذ بها فى هذا البحث ، وأعنى الارتباط بين نظريات علم الاجتماع ومشكلة النظام العام فى المجتمع .

وربما تكون وجهة نظر انتونى جيدنجر اكثر تشددا من رؤية الن داو . وهو يذهب فى مؤلف حديث(٤١) الى أن القول بأن علم الاجتماع قد التف حول مشكلة النظام يعد ضربا من ضروب الخرافة (يتحدث جيدنجز هنا عن اربع خرافات شاعت فى تاريخ الفكر الاجتماعى هى القول بارتباط علم الاجتماع بمشكلة النظام ، وبالأصول المحافظة لعلم الاجتماع ، ثم ما أسماه بخرافة

---

(٤٠) الفعل الاجتماعى هو أساس يمكن أن تلتف حوله اى نظرية فهو مؤشر على سلوك الجماعة الذى تحاول النظرية أن تفسره ، والاختلاف بين النظريات كامن فى تفسير طبيعة الفعل الاجتماعى .

(٤١) A. Giddens, **Studies in Social and Political Theory,** Hutchinson of London, Paperback edition, 1979.

الانقسام الكبير The great divide بين الفكر التأملى والفكر العلمى ، واخيرا القول بأن مشكلة النظام قد شغلت فقط العلماء المهتمين بالتكامل دون اولئك المهتمين بالصراع .

والواضح أن ثلاثة من الخرافات التى يتحدث عنها جيدنجز تتصل بالموضوع الذى نعالجه فى هذا الفصل ، ان لم تكن جميعها . فعرضنا للخرافة الاولى الخاصة بمشكلة النظام والتى يتحدث عنها جيدنجز لابد وان يلمس بشكل أو بأخر الخرفات الأخرى . يذهب جيدنجز الى القول بأن بارسونز الذى روج لارتباط نشأة علم الاجتماع بمشكلة النظام — قد اساء فهم آراء دوركايم عندما ذهب الى أنه (دوركايم) قد وجد أن حل هوبز لمشكلة النظام غير كاف من حيث أنه لايضمن العقد بعض الجوانب غير التعاقدية (القيم والمعايير) . فنقد دوركايم للمذهب النفعى utilitarianism لم يكن — والحديث لجيدنجز — المحرك الأول لاعمالة بحيث يمكن القول بأنه قدم حلا لانفعيا للمشكلة ، وانما تتضمن أعمال دوركايم أيضا نقدا لوجهة النظر المثالية التى تفترض أن النظام يشتمل على معايير اخلاقية . (٤٢)

ويحاول جيدنجز هنا أن ينفى تهمة البداية المحافظة لعلم الاجتماع على يد دوركايم ، من خلال ابرازه لقضية مؤداها أن دوركايم لم يناصر ايا من الاتجاهات الفكرية (الايديولوجية) التى كان لها تأثير فى القرن التاسع عشر (الليبرالية ، والراديكالية ، والنزعة المحافظة) . فلم يكن دوركايم معاديا للنفعية — الليبرالية بحيث انتهى به الأمر الى وضع المجتمع قبل الفرد والى الحاجة الملحة الى السلطة ، وانما كان يسعى الى تقديم صورة للفردية غير الانانية ، وهى الفردية الاخلاقية Moral Individualism التى تعد من خلق المجتمع وهى نتيجة لعملية طويلة من الارتقاء الاجتماعى(٤٣) . وذهب دوركايم — على عكس ماذهب المحافظون — انه لايمكن استرجاع النظام الأخلاقى الذى ساد فى عصور سابقة . ورغم أن دوركايم لم يكن اشتراكيا الا انه تأثر بسان سيمون (وهو المصدر الذى استقى منه

---

(٤٢) Ibid., pp. 210—211.

(٤٣) Ibid., p. 216.

كلّ من ماركس وكونت) ، وتأثر أيضا ببعض الاشتراكيين الاكاديميين الالمان من أمثال شـــولر Schmoller وفاجنـــر Wagner وشـــافل Schaffle كما تأثر بكانت Kante والكانتية الجـــديدة الى درجة أنه يمـــكن القـــول بانه اذا كان هناك خط عام فى تفكير دوركايم فانه ينحصر فى المشكلة الكانتية المتعلقة « بالمطلب الاخلاقى » Moral Imperative وليســـت مشـــكلة النظام (٤٤) . فلقد كان المطلب الاخلاقى مهما فى ظروف المجتمع الفرنسى الذى انتشرت فيه الحركات الثورية على عكس المجتمعات الاوربية الأخرى (خاصة المانيا وبريطانيا) . وقدم دوركايم فكرة الفردية الاخلاقية كحـــل لهذه المشـــكلة الكانتية ، وتجاوز بتقديمهـــا كل الاتجـــاهات الأيديولوجية السائدة فى عصره . فاذا كان دوركايم قد اتخذ اتجاها نقديا من المـــذهب النفعى ـــ على ماذهب بارسونز ـــ فانه قد اتخذ نفس الاتجاه من الاشتراكية والمذهب المحـــافظ . وينتهى جيدنجز من تحليله الى أن دوركايم لم يكن منشغلا بمشكلة النظـــام ، وانما كان يود التوفيق بين النظام والتغير فى صياغته لفكرة الفردية الاخلاقية . واذا كانت فكرة النظام موجودة أيضـــا فى أعمال ماركس (النظام عنده نابع من استخدام القهر) فان مشكلة الانقسام بين النظريات السوسيولوجية (نظريات التكامل ونظريات الصراع) تصبح زائفة

يبدو أن جيدنجز يتحدى هنا نيسبت وجماعات النقاد المحدثين ويشكك فى تفسيراتهم التى تذهب الى أن علم الاجتماع قد التف حول مشكلة النظام . غير انه لم يوفق الى حد كبير فى تبرير وجهة نظره . وهو من ناحية يشير الى أن الخرافة التى يتحدث عنها ـــ مثلها مثل أى خرافة ـــ تتضمن قدرا من الصدق وانه لكى نفهم العلاقة بين علم الاجتماع ومشـــكلة النظام يجب أن نربط علم الاجتماع بالتطور السياسى الاجتماعى لأوربا فى القرن التاسع عشر . وهذا ـــ كما سيتضح لنا من هذه الدراسة ـــ هو ما فعله النقاد بالضبط . ومن ناحية اخرى ، فان جيدنجر قد بدأ الحديث عما اسماه بخرافة مشكلة النظام بنقـــد لفهم بارسونز لدوركايم ، ثم انتهى من تحليله الى تأكيـــد فكرة « الفـــردية الأخلاقية » التى تعد توفيقا بين المذهب النفعى والمذهب المحافظ ، أو ادخال

---

(٤٤) Ibid, pp. 2115–216.

بعض العناصر غير التعاقدية المرتبطة بالقيم والمعايير على المذهب النفعى على ماذهب بارسونز . وعلى اى حال فلنا أن نؤكد هنا ما سبق أن أكدناه من ان رأى جيدنجز هذا يعكس بجلاء كيف يمكن أن تتأثر معالجة النظرية السوسيولوجية نفسها والتاريخ لهذه النظرية بالأيديولوجية حتى وان كان الباحث ينكر ذلك .

رابعا : مشكلة نظام أو مشكلة صراع :

اذا تساءلنا عن السبب الذى من أجله أطلق العلماء على هذه المشكلة مشكلة النظام لوجدناه كامنا فى حقيقة اساسية مؤداها أن النظام العام — بكل عناصره التى وردت فى هذا الفصل — هو الشىء المنشود أو المرغوب فيه من جانب هؤلاء العلماء ، فالنظام العام هو لب المشكلة بالنسبة لهم . وتنحصر مشكلة النظام فى سؤال اساسى مؤداة : كيف يمكن التخلص من حالة الاضطراب والصراع اللذين تفرضهما الطبيعة على الانسان ذى الغرائز المتعددة الذى يحاول دائما أن يشبع رغباته على حساب الآخرين ؟ وتكشف صياغة السؤال عن أن هناك جوانب من الواقع الاجتماعى يود أصحاب هذه المشكلة أن يتخلصوا منها ، او يهملوها أو يتصوروا ان الواقع الاجتماعى يمكن أن يتوصل الى مرحلة يتخلص فيها من هذه الجوانب ويطرحها جانبا ، وتنحصر هذه الجوانب فى عمليات الصراع المستمرة وعمليات التغير المستمر داخل المجتمع . والمحقق أن هذه الرؤية تكشف عن تحيز واضح ، فالعلماء الذين يجعلون من مشكلة النظام بؤرة اهتمام ، يفسرون الواقع الاجتماعى بطريقة متحيزة : فهم يبرزون عناصر النظام على سائر حقائق الموقف الاجتماعى ، ويهملون العناصر الاخرى الخاصة بالصراع والتغير .

فالسعى نحو النظام يعنى تقليل الصراع او محاصرته ، ويعنى أيضا الحد من التغيرات الاجتماعية التى يعتقد أنها تتولد من خلال الصراع او تعمل على توليده . فالاشياء والنظم والمعايير كلها غير قابلة للتغير ، والمجتمع فى النهاية بناء ثابت يوفر لنفسه عناصر بقائه واستمراره . أنه بناء يحقق قدرا كبيرا من التوازن والاستقرار . اما مظاهر عدم التوازن وعدم الاستقرار التى تنشأ من خلال الصراع بين جماعات المجتمع وافراده من خلال التنافس على قوى الانتاج ، أو التنافس على السلطة او حتى من خلال الصراعات الفكرية

والايديولوجية ، هذه المظاهر ليس لها مكان فى المخطط النظرى الذى يقدمه اصحاب مشكلة النظام ، ومن هنا القول بأن نظرياتهم متحيزة .

ويتضح هذا التحيز بجلاء عندما نرى أن أعمال علماء الاجتماع الغربيين ونشاطهم الفكرى لم تنفصل عن التيارات الفكرية والأخلاقية السائدة حولهم فالتطورات الكبرى فى علم الاجتماع قد تمت اثناء أزمات سياسية او اقتصادية كانت المجتمعات الغربية تمر بها . فلقد افرزت هذه الأزمات السياسية والاقتصادية صراعات فكرية وبنائية ، وكان على علماء الاجتماع أن يقدموا لمجتمعاتهم صياغة نظرية تمكنها من تخطى هذه الأزمات . ولما كانت هذه الصياغات النظرية مشروطة بالتغلب على عناصر الصراع فى المجتمع ، فانها لابد أن تكون صياغات متحيزة فى صف النظام الذى يعد امرا مرغوبا فيه فى نظر هؤلاء العلماء . ويدعونا هذا الى القول بأن علماء الاجتماع قد حولوا معالجة مشكلة النظام من المستوى الفلسفى الذى صاغها من خلاله توماس هوبز(٤٥) الى المستوى الواقعى (او الامبيريقى) . فنجدهم فى أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية يقدمون الصياغة النظرية التى تعيد الى المجتمع توازنه واستقراره ، وبعد أن يحقق المجتمع هذا التوازن وذلك الاستقرار فانهم يوجهون صياغاتهم النظرية نحو المحافظة على التوازن ونحو تحقيق التكامل بين عناصر الواقع الاجتماعى وذلك من خلال اهتمامهم المفرط بالعلاقات المتبادلة بين النظم ، وبضرورة التزام الأفراد والجماعات بالمعايير والقيم . ولاشك ان العلاقات المتبادلة بين اجزاء الواقع والاتفاق على القيم يخلق التزاما بمقاومة التغيرات التى تهدد النظام القائم حتى ولو كانت هذه التغيرات نابعة من قيم عليا مثل الحرية والمساواة والعدالة (٤٦) .

ولا شك أن هذا التحيز الأيديولوجى هو الذى يدعونا الى رفض مشكلة

---

(٤٥) رغم أن هوبز يعد من غلاة المحافظين ، ومن المدافعين عن النظام القائم ، الا اننا هنا نود أن نفرق بين معالجته للمشكلة ومعالجة علماء الاجتماع لها . لقد كان هوبز فيلسوفا وله أن يتخذ اى اتجاه مهما كان متحيزا ، اما علماء الاجتماع فمهمتهم الأساسية دراسة الواقع .

(٤٦) A. Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology Heinmann, London, New Delhi. 1971, p. 252.

النظام كمشكلة أساسية فى العلوم الاجتماعية . اننا هنا نود ان نبرز مشكلة أخرى ، واعنى مشكلة الصراع . ولقد ظل علماء الاجتماع الغربيون — بدءا من كونت وحتى بارسونز — ينحازون فى صف الاتجاه المحافظ لانه يخدم قضية النظام . ولا شك أن التركيز على جوانب النظام والتناغم بين عناصر الواقع قد جعلهم يسعون بطريقة مقصودة نحو محاصرة الاتجاه الآخر الذى يتخذ من دراسة الصراع نقطة انطلاق . فعلم الاجتماع يحوى فى داخله — ومنذ نشأته — يحوى كلا الاتجاهين . طور الاتجاه الأول المرتبط بالنظام أوجست كونت ، وطور الاتجاه الثانى المرتبط بالصراع كارل ماركس . غير أن تطور علم الاجتماع فى ارتباطه بمشكلة النظام قد جعله يهمل الاتجاه الآخر المرتبط بالصراع ، بل ويسعى — فى الكثير من الأحيان — الى تزييفه أو نقده وحذفه نهائيا من الصياغات النظرية . ولقد تعرض علم الاجتماع فى صورته المرتبطة بالنظام للنقد واصبح متهما بالتواطؤ مع الدولة من أجل قهر الانسان . وتطوير علم الاجتماع وتخليصه من أزمته الراهنة لايمكن أن يتم الا اذا تخلى العلماء عن مشكلة النظام كمشكلة أساسية وغريدة يدور حولها البحث السوسيولوجى ، وفى نفس الوقت لابد أن يتم تطوير الجوانب التى اتخذت من الصراع محورا اساسيا ، لأن تطويرها والاهتمام بها سوف يعيد للانسان حريته التى افتقدها فى الكثير من مجتمعات العالم . ويدعونا هذا الى ضرورة تحويل مسار علم الاجتماع — نظرياته وبحوثه — نحو الاهتمام بمشكلة الصراع : كيف يكون الصراع الاجتماعى ممكنا ؟ .

ولا تعنى تسمية المشكلة بمشكلة الصراع أن الصراع شىء ابدى ، أو أنه يسود كل انماط العلاقات الاجتماعية . ولكن هناك مجموعة من المبررات تجعل من ابراز مشكلة الصراع موضوعا حيويا :

١ — ان الصراع هنا يعنى الصراع الذى يسعى الى اعادة توزيع السلطة بطريقة عادلة أو الذى يسعى الى تحقيق العدالة الاجتماعية . فالوجود ليس سوى عملية صراع من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية ، والصراع هو البعد الواضح للتعامل فى عملية السعى المستمر نحو خلق نظام جديد .

٢ — يترتب على هذا اننا نستطيع أن نحلل من خلال قضية الصراع ،

تقضية النظام . فمشكلة النظام تنشأ بناء على تصور الواقع على أنه « حرب الكل ضد الكل » أى أنه واقع يخبر عمليات غير منظمة من الصراع ، الأمر الذى يفرض ضرورة قيام نظام بين عناصر هذا الواقع . ووجهة النظر التى تنطلق من مفهوم الصراع لا ترفض هذا ، ولكنها تضع شروطا لنوعية النظام الذى يجب أن يقوم . وهنا تكمن نقطة الخلاف بينها وبين وجهة النظر التى تنطلق من مفهوم النظام . فتلك الأخيرة تلح على ضرورة قيـــام النظام على الاتفاق العام حول مجموعة من القيم والمعايير بصرف النظر عن التفـــاوت الطبقى بين أفراد المجتمع . والنظام هنا نظام غير عادل يمنح بعض أفراده الحرية التامة فى استغلال الآخرين والسيطرة عليهم . أما وجهة النظر التى تنطلق من مفهوم الصراع فانها تشترط لقيام النظام أن يكون نظاما عادلا تختفى فيه مظاهر الطبقيـــة والاســـتغلال . فهى تريد أن تتجـــاوز النظام بالمفهوم الأول (النظام القائم على الاتفاق) لتخلق نظاما جديدا أكثر حرية وعدالة ، ولتحقيق هذا لابد من ابراز جوانب الصراع التى يعرفها هذا النظام والتى تطمسها نظرية الاتفاق ، وذلك فى عملية السعى نحو خلق النظـــام الجديد .

٣ ــ وأكثر من هذا فان التركيز على مفهوم الصراع يتيح لنا أن نتناول أشكالا أخرى من النظام غير ذلك الشكل القائم على الالتزام بالمعايير . فمن خلال تصور أى نظام اجتماعى على أنه يحوى عمليات مستمرة ومتنوعة من الصراع يمكن أن يمتد التحليل الى أشكال أخرى من النظام غير ذلك النوع القائم على الالتزام بالمعايير (٤٧) . فمن الممكن التمييز بين النظام العام ــ

---

(٤٧) يستلزم ذلك بطبيعة الحال تطوير التصور الماركسى عن الصراع المرتبطة بالنمط الرأسمالى فقط ، والامتداد به ليشمل أى نظام استغلالى مهما كانت هويته . حقيقة أن ماركس اهتم بأنماط اخـــرى من المجتمعـــات (النمط الاقطاعى والنمط الآسيوى على سبيل المثال) ، غير أنه اهتم اهتماما بالغا بالنمط الرأسمالى على أنه النمط الذى يبلغ فيه الصراع الطبقى ذروته ومع وجود أشكال أخرى من النظام غير النظام الرأسمالى ، ومع نجاح النظام الرأسمالى فى امتصاص الكثير من الصراعات التى تصورها ماركس ، ومع نشـــأة أنماط جـــديدة من الصراع داخل هذا النظام ، مع كل هـــذا تصبح ضرورة تطويع التصور الماركسى للصراع أمرا ضروريا . وهى نقطة أكدها الراديكاليون من أصحاب الفكر السوسيولوجى على ما سنرى فى القســـم الثانى من هذا البحث .

كجبرية اجتماعية تفرضها طبيعة الوجود الانسانى ذاته ، وهو نظام يحوى عناصر صراعية مستمرة تمتد عبر مستويات متعددة تبدأ من جزئيات النظام وتنتهى بكلياته ، وبين النظام العام كجبرية سياسية محددة تاريخيا ، وهذا النظام تفرضه طبقة اجتماعية محددة تعمل على الحفاظ على وضعيته العامة والخاصة من خلال ميكانيزمات متعددة للضبط الاجتماعى ومن خلال تطويع الصراع عن طريق نقله الى مستويات دنيا بحتة باستخدام ادوات ثقافية (وسائل الاعلام على سبيل المثال) وبين نوع ثالث من النظام هو النظام القبلى الذى تفرضه سلطة دينية أو قبلية من خلال عزل المجتمع عن التيارات الخارجية والقضاء على أى بادرة صراع عبر كل المستويات البنائية الجزئية والكلية على حد سواء ، وبين نوع رابع هو النظام القائم على فرض السلطة العسكرية التى تكبح أى مظهر للصراع من خلال أساليب بوليسية واعلامية متعددة . وتدل هذه الأشكال على أن للنظام العام أشكالا وألوانا تجعله يختلف باختلاف الفترات التاريخية ، وباختلاف الاطار المكانى الذى ينشأ فيه ، وهو على اختلاف أنواعه يمثل رد فعل لمشكلة اكبر واضخم واعنى مشكلة الصراع .